المحاضرة السادسة : نظرية الأجناس الأدبية ملاحظة هذه المحاضرات أعدها الدكتور صلاح ياسين

أولا) مفهومها:

إذا كانت النظريات السابقة (المحاكاة، التعبير، الخلق، الانعكاس) قد نَظَرَت للأدب على أنه ظاهرة عامة فإن نظرية الأجناس قد خالفت هذه الرؤية؛ حينما أقامت الحدود ووضعت الحواجز واهتمت بالفروق بين جنس أدبي وآخر.

ومنه يمكننا اعتبار نظرية الأجناس تلك الآراء القديمة والجديدة، التي تحاول تقسيم الأدب إلى أنواع تربطها مواصفات مشتركة مثل الشعر والرواية والملحمة والمسرح. وبما أن الأمر كذلك فإن التساؤلات التي تطرحها نظرية الأنواع تتمحور حول سؤالين جوهريين هما: **"لماذا وُجدت الأجناس الأدبية؟ وما هو أساس التصنيف بين جنس أدبي وآخر"[1]؟.**

ثانيا) قضايا نظرية الأجناس:

إن قضية الأجناس الأدبية هي قضية قديمة لكنها اكتسبت مع مرور الزمن عدة أبعاد نستطيع إيجازها في ثلاث قضايا هي: **نقاء الجنس ، تطور الجنس، تداخل الأجناس،** وسنحاول أن نتعرض باختصار مفيد لهذه النقاط.

يعتبر أرسطو من أوائل من بدأ بتصنيف الأجناس الأدبية؛ حيث قسم الأدب إلى ثلاثة أنواع وهي التراجيديا والكوميديا والملحمة، وبَيَّنَ خصائصها، كما بَيَّنَ أن كل نوع يتميز عن الآخر من حيث الماهية والقيمة، وأوجب الفصل بينها فيما عُرِف بمبدأ نقاء النوع[2].

وقد ساير توماس إليوت (Thomas Eliot) هذه الفكرة عندما قسم الأدب إلى ثلاثة مواقف وهي الغنائي والملحمي والدرامي وسماها أصوات الشعر الثلاثة؛ الأول صوت الشاعر عندما يتوجه بالحديث إلى نفسه، والثاني صوت الشاعر عندما يتوجه بالحديث إلى جمهور، والثالث صوت الشاعر عندما يبتدع حديثا يدور بين شخصيات متخيلة[3].

وقد حاول الناقد هدسون (Hudson) أن يعطي تفسيرا لظهور الأنواع الأدبية واختلافها؛ فرأى أن " الأنواع الأدبية وُجدت بسبب تنوع حوافزنا الذاتية التي يمكن تقسيمها إلى أربعة: **"رغبتنا في التعبير الذاتي أوجدت الشعر، اهتمامنا بالناس وبأعمالهم أوجد المسرح، اهتمامنا بعالم الواقع الذي نعيشه وبعالم الخيال الذي ننقله إلى الوجود أوجد الأدب القصصي، حبنا للصورة من حيث هي صورة أوجد الأدب ككيان قائم بذاته"[4].**

ولقد بقيت هذه الآراء الكلاسيكية التي تفصل بين الأنواع الأدبية قائمة حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ حيث **"كانت الأجناس بالنسبة لهذين القرنين شيئا موجودا حَيًّا، وكان الاعتقاد بأن الأجناس الأدبية لها حدودها**

---

[1] شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص 96.
[2] شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، ص 96.
[3] عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، دار الثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1976، ص 135 وما بعدها. نقلا عن شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص 99.
[4] عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، (دراسة ونقد)، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 69.

المحددة -وأنه يجب الإبقاء على هذا التحديد- عقيدة عند الكلاسيكيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر"[1] وبحلول العصر الرومانسي اختلفت النظرية الأدبية اختلافا جوهريا، فإذا كانت النظرية الكلاسيكية تنفي وجود أي علاقة بين الأجناس الأدبية فإن الرؤية الرومانسية ترى أن المزج بين الأجناس يكون أفضل من التمييز بينها؛ ويعتبر ويليام شكسبير من أبرز الأدباء الذين خرجوا عن تقاليد نقاء النوع الأرسطية (نسبة إلى أرسطو) حينما مزج بين المأساة والملهاة في بعض مسرحياته ليُخْصِبَ في النهاية ما يُسمى بالدراما الحديثة.

إن المزج بين المأساة والملهاة في نظر النقاد هو أفضل من الفصل بينهما لأن القارئ الرومانسي في العصر الحديث مختلف عن القارئ الكلاسيكي، فالثورة الرومانسية/ البرجوازية على النظام الكلاسيكي/ الإقطاعي حرَّرت الإنسان وفتحت آفاق الإبداع والتنوع والتحرر، فصار لا بُدَّ من كسر القيود والروتين، كما أن نفسية القارئ الرومانسي صارت أكثر تقلبا وخضرمة، فاستلزم من الأدباء أن يكسروا تلك الحدود ويُقَدِّمُوا عملا هجينا مختلطا يراعي تلك الأذواق التي لا تستقرُّ على حال.

وهناك رأي يقول إن الأجناس تعود إلى أصل واحد حدثت له تطورات عبر الزمان والمكان فحدث الاختلاف والتمايز، ومما لا شك فيه أن هذه النظرة قد تأثرت بنظرية النشوء والارتقاء التطورية لشارلز داروين، فإذا كانت الكائنات الحية تنشأ بسيطة ثم تتطور فإن جميع الأجناس الأدبية أيضا تعود إلى أصل واحد لكنها تطورت عنه.

ويعتبر فرديناند برونتيير من أبرز النقاد الذين طبقوا نظرية داروين على الأدب، فرأى أن **"النوع الأدبي يمر بمراحل الولادة ثم النضج ثم الفناء والتحول إلى نوع آخر، فالأنواع الأدبية لا تفنى تماما بل تتواصل عناصرها في النوع الجديد المتطور منها"**[2]، وعليه فإن **"كل نوع من الأنواع الأدبية يتطور، أي أنه بعد عصر بدائي تختلط فيه الأنواع الأدبية ولا تتحدد يأخذ كل نوع في التميز والاستقلال عن جيرانه الذين كانوا مختلطين به اختلاطا تاما، ثم هو يتكون ويحيا حياته الخاصة متدرجا حتى يصل درجة النضوج والكمال لكي ينتهي أمره إلى الضعف والانحلال"**[3]، وقد أعطى برونتيير عدة نماذج للتطور الأجناسي منها **"تَوَلُّدُ الشعر الغنائي الرومانسي في القرن التاسع عشر من خطب الوعظ الديني الذي شاع بفرنسا في القرن السابع عشر، فهذا الشعر لم يتطور من شعر مماثل له سبقه، وإنما تطور أو تولد عن فن آخر على نحو ما يتطور أو يتولد كائن عضوي من كائن آخر"**[4].

إذا كان علماء الدين وبعض المفكرين قد تَحَرَّجُوا من قُبُول نظرية داروين التي تنص على إمكانية انتقال جنس حي إلى جنس آخر، فإن تداخل الأجناس الأدبية يعتبر أمرا محمودا لدى أصحاب النظريات والمناهج النقدية التي أذابت قدر الإمكان الحواجز بين الأجناس الأدبية المعروفة والتي أصبحت في النهاية خليطا قابلا للتواشج والاندماج فيما بينها، وهو الأمر الذي جعل النقاد الذين ينتمون إلى تيار ما بعد الحداثة يطالبون بإلغاء الحدود تماما بين الأجناس الأدبية.

---

[1] رنيه ويليك وآوستين وارن: نظرية الأدب، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، السعودية، ط1، 1992، ص 318.

[2] توماس مونرو: التطور في الفنون، ترجمة محمد أبو دره، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، 1971، ج1، ص (352-355).

[3] حسن عون: نظرية الأنواع الأدبية، مطبعة رويال خلف، الأسكندرية، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 28.

[4] عبد العزيز عتيق: تاريخ الأدب العربي1 (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11، ص 13.

ويعتبر بندتو كروتشه Benedetto Croce من المنادين بعدم التمييز بين الأنواع الأدبية؛ حيث يرى ضرورة ضم كل الأشكال الأدبية كالقصائد والمسرحيات والروايات المنفردة تحت مسمى واحد هو الأدب[1]، كما أثبت النقاد خَطَأَ التمييز بين الشعر والنثر على أساس الموضوع؛ **" فيُقال عندئذ أن هذا الموضوع من موضوعات الشعر فلا بد أن يكون تناوله شعريا، وإذا حاول الكاتب –تبعا لذلك- أن يتناوله تناولا نثريا فإنه يكون عرضة للإخفاق، وكذلك أن يُقال أن هذا الموضوع هو من موضوعات النثر فلا بُد أن يكون تناوله تناولا نثريا، وإذا حاول الشاعر –تبعا لذلك- أن يتناوله تناولا شعريا فإنه يكون عرضة للإخفاق، وهذه الفكرة كما قلنا خاطئة؛ فليس هناك موضوع مخصص للشعر لا يصلح الشعر إلا فيه، فإن كل موضوع صالح لأن يكون موضوعا شعريا أو نثريا"**[2].

وهناك من يرى أن التمييز بين الشعر والنثر ينبغي أن يتم على أساس **"عنصر الموسيقى والوزن والقافية، غير أن آخرين اعترضوا على هذا الرأي بقولهم إن ألفية ابن مالك تتوافر على عنصر الوزن والقافية لكنها ليست شعرا بل نظما"**[3].

وإذا كان المزج بين الأجناس الأدبية قد تم من خلال الشكل تارة ومن خلال الموضوع تارة أخرى فإن أدونيس قد ضم جميع الأجناس تحت مسمى واحد وهو الكتابة، ويرى أدونيس أن **"الحدود التي كانت تقسم الكتابة إلى أنواع يجب أن تزول لكي يكون هناك نوع واحد هو الكتابة. لا نعود نلتمس معيار التمييز في نوعية المكتوب هل هو قصيدة أم قصة؟ مسرحية أم رواية، وإنما نلتمسه في درجة حضوره الإبداعي، ولئن كانت الكتابة في الماضي خريطة رُسِمت عليها حدود الأنواع وعُيِّنت رفوفها وأدراجها وكان على كل من يدخل إليها أن يُقَدِّم كالزائر أوراق اعتماده النوعية الخاصة، فإن هذه الخريطة اليوم بيضاء دون أدراج ولا رُفُوف، والداخل إليها هو، وحده، الغازي المخلخل الذي رمى علامة الزيارة ورفع علامة الغزو"**[4].

إن مرحلة الكتابة وفق منظور ما بعد الحداثة تتخطى مرحلة الأجناس الأدبية بما فيها من صفة أدبية إلى مرحلة العفوية الـمُعَدّة إعداداً لسانيا واجتماعيا وتواصليا حديثا يشكل فيها الجنس الأدبي نفسه بنفسه[5]، **"مما يؤدي إلى تكريس أعراف جديدة في قراءة النصوص الأدبية تستلزم بالضرورة تخطي الموجه الجنسي للنص بحثا عن شعرية خاصة به، وذلك يبرر مهمة البحث عن السردي في الشعري مثلا، فالحدود بين الأجناس الأدبية تُعْبَرُ باستمرار والأنواع تُخْلَط أو تُمْزَج والقديم منها يُحَوَّر، كما يُخلق أنواع جديدة أخرى"**[6].

ما يمكننا الخلوص إليه في نهاية هذه المحاضرة هو أن تماهي الأجناس الأدبية وتداخلها في زمن ما بعد الحداثة ليس غريبا خصوصا وأننا نعيش في عصر يولي أهمية كبيرة للحريات الإبداعية والنقدية؛ فتداخل الأجناس هو الوجه الآخر لرغبة إنسان العولمة في التخلص من جميع القيود واجتياز كافة الحدود التي كانت تُكَبِّلُهُ وتقف عائقا أمامه فيما مضى؛ إننا في زمن التحاور والتعايش والانفتاح على الآخر وقد علت الشعارات في الآونة الأخيرة المنادية بالخروج من حدود الدول والإقليميات والقوميات ونبذ العصبية المذهبية والعرقية والتمييز

---

[1] رينه ويليك وأستن وارن: في نظرية الأدب، ص 313.
[2] عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، ص (71، 72).
[3] شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، ص 101.
[4] أدونيس: الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، صدمة الحداثة، ط1، 1978، دار العودة، بيروت، لبنان، ص (312، 313).
[5] مازن الوعر: علم تخليل الخطاب وموقع الجنس الأدبي، مجلة آفاق التراث والثقافة، عدد 14، 2002، ص (15، 16).
[6] حاتم الصكر: مرايا نرسيس، (الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص (16، 17).

العنصري، إضافة إلى المناداة بضرورة الحوار؛ حوار الأديان، حوار الثقافات، حوار الحضارات، والدعوة إلى تأسيس حزب الإنسان الذي يضم تحت لوائه جميع الطوائف والجنسيات على تنوعها واختلافها.